

الوجدان الجماعي

في الشَّعْرِ الجَاهِلِيِّ

للدكتور عبد الغني زيتوني

مدرس الأدب القديم بجامعة حلب

إن مجتمع القبيلة في العصر الجاهلي، بعلاقاته ونظمه وعاداته وأعرافه، هو المجتمع الذي يولد فيه العربي، ثم ينشأ متشرباً بنظمه وعاداته وأعرافه التي تبنى على دعامة أساسية هي النسب. وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أن كل امرئ في قبيلته يتغنى بانتمائه، ويعتد بأرومته، بدءاً من والده وإخوته، وانتهاءً إلى رهطه وعشيرته، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، و«هويته» التي يحملها دائماً، في حله وترحاله، اسم قبيلته، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم.

فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الشعر الجاهلي يبرز الإنسان العربي متعصباً لقبيلته أشد التعصب، ملتحمًا بها ألصق الالتحام، لأنه يعي ويدرك أن وجوده، مرتبط بوجودها، وفناءه مقرون بفنائها. ولا أدعى لهذه العصبية، وهذا الالتحام من شعوره بوحدة النسب، أي وحدة الدم التي تربطه بأفراد

القبيلة جميعاً، والتي تجعله يحس أنه عضو في جسم القبيلة، يصيبه ما يصيب القبيلة، فيفرح لفرحها، ويحزن لحزنها، ويظعن لظعنها، وينزل لنزولها، وإذا أُغبر عليها هبّ لنجدتها، ذائداً عن حياضها، وشعاره صيحات قوية تعلن انتسابه إليها، وإذا اعتدي على فرد منها انطلق إلى الثأر من القبيلة المعتدية. وفضلاً عن ذلك كله فإنه ينقاد لسيدها، ويخضع لما تمليه عليه نظمها وأعرافها.

فالنزعة العصبية تعني تمسك العربي بنسب قبيلته تمسكاً شديداً، وخضوعه التام لشريعة القبيلة. وهذه العصبية هي التي تهب الأفراد القوة والتأزر في مواجهة الأعداء. وقد ألمح ابن خلدون إلى هذا الأمر في قوله: «ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبيةً وأهل نسبٍ واحدٍ، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم، ويخشى جانبهم، إذ نُعرة كلُّ أحد على نسبه وعصبيته أهم، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنُعة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطباع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم» (١).

١ - الالتزام القبلي :

لا غرو، بعد أن عرفنا مدى عصبية الفرد، أن يقف الإنسان العربي موقف الملتزم بقضايا القبيلة وحقوقها وواجباتها، لا يكاد يخرج عن هذا الالتزام. ولما كان الشاعر فرداً من أفراد القبيلة فقد اتخذ الموقف نفسه، بل إنه تحمل أعباء أكثر، لما له من أهمية في الحياة الجاهلية، لذلك حمل لواء الشعر مدافعاً عن قبيلته أشد الدفاع، ومفتخراً بما آثرها وأمجادها أعظم الافتخار. وإذا كانت المهمة التي يقوم بها الشاعر، في أي مجتمع كان، هي الكشف عن العقلية المنتشرة في ذلك المجتمع، إذ يشعر بها ويعبر عنها (٢)، فإن هذه المهمة تنطبق تماماً على ما قام به الشاعر الجاهلي، فقد جعل من شعره مرآة صادقة تعكس قضايا القبيلة في حالتها الحربية والسلم، فضلاً عن وقوفه مع قبيلته، مدفوعاً بنزعة العصبية تجاهها، فإذا هو يرى أن نسبها أشرف

الأنساب، وأن شجاعتها ما بعدها شجاعة، وأن فضائلها وخلالها الحميدة تربو على ما عداها من فضائل القبائل الأخرى وخلالها.

وتلك الرؤية ليست قصراً على الشاعر وإنما يشترك فيها معظم أفراد القبيلة، وما الشاعر إلا لسان حال القبيلة، يعبر في شعره عن انفعالات أفرادها وأحاسيسهم وطموحاتهم، فينقلها إلى الآخرين، فشعره لا يعكس شعوراً ذاتياً فقط، وإنما يعكس شعور جماعته أيضاً.

وهكذا نجد في كثير من الشعر الجاهلي ذلك التعبير عن طغيان الروح الجماعية على الإنسان العربي، وقد جُلِّيت هذه الروح في نزعتها العصبية التي جعلته لا يكاد يخرج عن مجتمع القبيلة والالتزام به؛ ذلك أن الفرد في القبيلة عليه أن يتبعها في أمورها كلها سواء أكانت مصيبة أم مخطئة، فما تقرره هو القرار النافذ الذي لا ينبغي لأحد أن يخرج عليه، على الرغم من ظهور فساده أحياناً. وقد عبّر عن مثل ذلك الموقف دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ حين قال (٣):

أمرتهمُ أمري بمُنْعَرَجِ اللَّوَى فلم يستبينوا الرُّشدُ إلا ضحى الغدِ
فلما عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَرَى غَسَوَاتِهِمْ وَأَنْتِي غَيْرُ مُهْتَدِي
وما أنا إلا من غَزِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدُ غَزِيَّةٌ أَرُشِدِ

إذن فثمة مصير واحد لجميع أفراد القبيلة، والالتزام بها يحتم على العربي أن يكون مع قومه في السراء والضراء. وقد تحول تمسك الفرد بمصير القبيلة إلى أسطورة يتناقلها العرب جيلاً بعد جيل عن وفد عاد، حين خيروا من السماء، وكانوا ثلاثة، فاختر اثنان منهم ما يحقق آمالهما، أما الثالث، وهو قَيْلُ بْنُ عَتْرٍ، فقال: «أختر أن يُصَيِّنِي مَا أَصَابَ قَوْمِي، قَلِيلٌ: إنه الهلاك. قال: لا أبالي؛ لا حاجة لي في البقاء بعدهم»، فأصابه ما أصاب عاداً من العذاب فهلك» (٤).

إن من أهم مظاهر نزوع الفرد نحو قبيلته، كما يبدو من الشعر، حرصه الشديد على النسب والاعتزاز به، ولم لا؟ وهو أقوى صلة تربطه بقومه،

وتشد أواصر العصبية معهم . فلا غرابة بعد ذلك أن يطمح إلى أن يجعل نسبه في الذروة من الشرف والرفعة ، وأن يجعل الأجداد والآباء الذين ينتمون إليه في مقام السادة العظماء . ونجد صدى ذلك في قول معاوية بن مالك (ه) :

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ مَشْهُورَةٍ حُشِدَ لَهُمْ مَجْدٌ أَشْمٌ تَلِيدٌ
الْفَوَا أَبَاهُمْ سِيداً وَأَعَانَهُمْ كَرَمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجُدُودٌ
إِذْ كُلُّ حَيٍّ نَابَتْ بِأُرُومَةٍ نَبَتَ الْعَصَاةِ فَمَا جَدُّ وَكَيْسِدٌ
وَإِذَا نَوَافِقُ جُرَاءُ أَوْ نَجْدَةٌ كُنَّا، سُمِّيَ، بِهَا الْعَدُوُّ نَكِيدٌ

فالشاعر يؤكد انتماءه إلى قومه الذين يشكلون عصبه قوية ملتحمة الأطراف، تشمخ متطاولة بأمجادها نحو السماء، قد رعاها الآباء والأعمام والأجداد حتى جعلوها كشجرة وارفة الظلال تنضح عبيرا فواحا من المجد والسيادة، وتقف صامدة راسخة أمام زعزعة الرياح، لِمَا لها من قوة الأغصان وصلابة الفروع .

وعلى هذه الشاكلة ينزع سلامة بن جندل السعدي إلى الفخر بانسابه إلى قومه الذين يجمعون إلى شرف المحند شجاعة في القتال، ورأيا صائبا في حل قضايا القبيلة ، وإحلال الوفاق والوثام بين أفرادها(٦) :

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ سَعْدِيَّةٍ دَرَبِي الأَسِنَّةَ كُلَّ يَوْمٍ تَلَاقِي
لَا يَنْظُرُونَ إِذَا الْكُتَيْبَةُ أَحْجَمَتْ نَظَرَ الْجَمَالِ كُرْبِينَ بِالْأَوْسَاقِ
يَكْفُونَ غَائِبَهُمْ وَيُقْضَى أَمْرُهُمْ فِي غَيْرِ نَقْضٍ مِنْهُمْ وَشِقَاقِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ مِنْ يَبْلُ نَحْوَرِهَا بِدَمٍ كَمَاءِ الْعَنْدَمِ الْمَهْرَاقِ

وشبه بذلك أيضا فخر الأعشى بعصيته القيسية، وبشبابها الذين يفوقون الآخرين شجاعة وجمالا، فضلا عن اتصافهم بالأنفة والعزة والكرم(٧) .

إن اعتزاز الإنسان العربي بنسبه جعله يغلوفي بعض الأحيان، فلا يرى نسبا يضاهي نسب قبيلته نبلا وشرفا، ولا يرضى أن يتناول أحد من

القبائل الأخرى، فيظن نفسه أعلى نسبا وأشرف أرومة، وما الرواية الآتية إلا صورة واضحة لذلك الغلو.

فقد ورد أن بدر بن معشر من بني مُدْرِكَةَ وقف في الجاهلية، بسوق عُكاظ، يفخر بنسبه، ويقول:

نحن بنو مُدْرِكَةَ بنِ خِنْدِفٍ من يَطْعُنُوا في عينه لم يَطْرِفِ
ومَنْ يكونوا قَوْمَهُ يُعْطِرِفِ كأنه لُجَّةٌ بَحْرِ مُسَدِفِ

ثم مدَّ رجله، وقال: «أنا أعزُّ العرب، فمنَّ زعم أنه أعزُّ مني فليضربها». فلم يطق الأحرُّ بن مازن الهوازبيِّ عنجهيته ورفع نسب قبيلته فوق أنساب القبائل الأخرى، فاستل سيف، وضرب رجله، فأندرها من الركبة، غير مبالٍ بحرمة الشهر الحرام وقد كاد الشر يستفحل بين قبيلتي الرجلين، لولا أنهم جنحوا إلى الصلح فيما بينهم.

وقد سجل الأحمر تلك الحادثة في شعره، فقال (٨):

إني وسيفي حليفا كل داهية من الدَّواهي التي بالعمد أُجنيها
إني نقيمت عليه الفخر حين دعا جَهْرًا وأبرز عن رجل يُعريها
ضربتها أنفا إذ مدها بطراً وقلت دونكها، خُذها بما فيها
لما رأى رجله بانت بركبتها أومى إلى رجله الأخرى يُفديها

وتلك، لا شك، صورة للغلو الشديد في التعصب القبلي، ولم تكن هي الصورة السائدة في العصر الجاهلي؛ إذ لكل قبيلة مكانتها في مدارج النسب والشرف، تعرفها لها القبائل الأخرى وتضعها موضعها فيها. أما إذا حدث، أحياناً، إفراط من فرد ينتمي إلى قبيلة ما، فإن إفراطاً آخر يقابله من الطرف الآخر على الأغلب، وتكون عاقبته شبيهة بما حدث لساق بدر بن معشر بسوق عُكاظ.

لقد نهل الإنسان العربي من حب قبيلته حتى غدا لا يلهج إلا بذكرها، وفي كثير من الأحيان لم يكن يرى في قبيلته إلا نموذجاً مثالياً للكمال والرفعة

والسؤدد؛ فإذا هو ينحت لها تمثالا بديعا يجمع فيه أفضل الصفات الخَلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ .

وليس أدل على ذلك الحب من معلقة عمرو بن كلثوم التي لم يدع فيها فضيلة من الفضائل إلا جعلها لصيقة بقومه بني تغلب، ولا صفة من صفات البطولة إلا أسبغها عليهم . ولم يكنف بذلك فقد تضخمت في نفسه تلك الفضائل والصفات حتى فاضت في قوله(٩) :

لنا الدنيا وَمَنْ أَضْحَى عليها وَنَبِطُشُ حِينَ نَبِطُشُ قَادِرِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرُّ لَهُ الْجِبَابِرُ سَاجِدِينَا
مَلْنَا الْبِرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهَرَ الْبَحْرُ نَمْلُوهُ سَفِينَا

إنَّ نفس الشاعر قد امتلأت بعظمة القبيلة حتى ذابت فيها ذوبانا تاما، فلم تعد تعبر إلا بلسانها، وغابت «أنا» الشاعر لتحل محلها «نحن» القبيلة، وظهر ذلك واضحا في استخدام ضمائر الجمع في الأفعال والأسماء، ولم يقتصر استخدامها على الأبيات السابقة، وإنما شمل أكثر أبيات المعلقة . فلم يعد مستغربا، بعد أن استحوذت القبيلة على كيان الشاعر، أن نراه يجعلها مالكة الدنيا، ومسيطرة على مَنْ فيها من القبائل .

وقد نهج الشاعر عامر المُخَارِبِيَّ نهجا مماثلا تجاه قبيلته؛ إذ جعله التزامه نحوها ينطلق إلى رفعها إلى مكانة عالية من الشجاعة في القتال، وإلى الذروة الشامخة من السيادة والمهابة(١٠) :

أولئك قومي إن يَلُدُّ بيوتهم أخو حَدَثَ يوماً فلن يَتَهَضَّمَا
وكم فيهم من سيد ذي مهابةٍ يُهاب إذا ما رائدُ الحرب أضرمَا
لنا العزة القعساء نختطم العدى بها ثم نستعصي بها أن نخطَمَا
هم يطدون الأرض لولا هم ارتمت بمن فوقها من ذي بيانٍ وأعجَمَا

إن طغيان الروح الجماعية على الشاعر والتزامه القبلي جعلاه لا يرى في الوجود غير قبيلته، فهي المحور الذي تدور عليه حياة الآخرين، فإذا ما

زالت انتهت الحياة بمن فيها، ومن هنا نجد أن حياة الشاعر قد اندمجت في حياة القبيلة وغدت حياة واحدة، لأنه ربط ربطاً سببياً بين وجوده ووجودها، فأَيُّ وجود ينتهي فإن الوجود الآخر ينتهي أيضاً، فهي علة الحياة وعلة الوجود ولولاها لما كانت حياة ولما كان وجود.

وهكذا أوضح لنا الشعر جلياً التزام الإنسان العربي بقبيلته؛ فقد ظهر ذلك الالتزام في خضوعه التام لها، وفي فخره بالانتماء إلى نسبها، وفي رؤيته المثالية لمآثرها وأمجادها. وسنجد أن نزعتة العصبية جعلته أيضاً ينقاد لسيدها انقياداً تاماً، ويرفع من مكانته إلى أعلى المراتب.

٢ - سيد القبيلة :

إن نزوع الفرد نحو قبيلته وميله المفرط تجاهها دفعاه إلى أن يرى في سيدها المثل الأعلى، وأن يرى في صفاته صفات فريدة تميزه من سائر الأفراد الآخرين؛ إذ إن قضايا القبيلة وواجباتها نحو أفرادها، ونحو القبائل الأخرى كثيرة ومختلفة، فكان لا بد لرئيسها أن يتحمل عبء القيام بالتوجيه والإرشاد وحمل المسؤولية أمام مجتمع القبيلة، الذي يعيش، غالباً، حياة غير مستقرة في مواجهة طبيعة قاسية، تجبره على التنقل والارتحال، وفي مواجهة أعداء أولي بأس وقوة يجبرونه على التيقظ والحذر.

وذلك كله جعل الإنسان العربي يطلب في سيده خلاصاً وشمائل كثيرة، تخوله قيادة القبيلة في تلك الحياة الشاقة. وقد أمدتنا الروايات والنصوص الشعرية بمعظم صفات الرئاسة، مما يجعلنا نكون رؤية واضحة لسيد القبيلة. فقد ورد أن أهل الجاهلية كانوا: «لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال، السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان» (١١). كما ورد: «أنه قيل لقيس بن عاصم: بِمَ سُدَّتْ قَوْمَكَ؟ قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القرى» (١٢).

وفضلاً عن تلك الصفات لا بد لسيد القبيلة من أن يتحلّى بالعقل والرأي الصائب، وأن يكون ذا حيلة وفطنة للتخلص من المعضلات في

الحرب والسلام . كما لا بد له من أن يكون شجاعا مقداما مُلِمًا بفنون القتال وقيادة المعارك، يمتلك جسما قويا قادرا على الصبر والتحمل في الشدائد، وهذا ما وُصِفَ به عامر بن الطفيل، سيد قبيلة جعفر بن كلاب، إذ قيل عنه: «كان لا يَضِلُّ حتى يَضِلَّ النَّجْمُ، ولا يعطش حتى يعطش البعير، ولا يهاب حتى يهاب السَّيْلُ، كان، والله، خيرا ما يكون حين لا تظنُّ نفسُ بنفسٍ خيرا» (١٣).

وذهب قسم من الشعراء إلى أن الرأي الحكيم والشجاعة الفائقة هما أهم ما يتطلبه الفرد في قائد قبيلته ورئيسها، وآية ذلك أنه حينما علم لقيط بن يعمر الإيادي بحشد كسرى جيوشه للإغارة على قومه بعث إليهم شعرا يحذّرهم فيه، ويطلب منهم أن يتخيروا قائدا يتصف بصفات السيادة، وفي مقدمتها شجاعة القتال وحنكة التفكير (١٤):

فقلّدوا أمركم، لله ذرّكم	رَحِبَ الدَّرَاعِ بِأمر الحرب مُضْطَلِعَا
لا مُتْرَفًا إن رَخَاءَ العيش ساعده	ولا إذا عَضَّ مَكْرُوهٌ به خَشَعَا
مُسَهِّدَ النومِ تَغْنِيهِ تُغْوِرُكُمْ	يَرُومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلِعَا
ما انفكَّ يَجْلِبُ ذرَّ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ	يكون مُتَّبِعًا طَوْرًا ومُتَّبِعَا
وليس يشغله مالٌ يَثْمَرُهُ	عنكم ولا ولدٌ يَنْغِي له الرِّفْعَا
حتى استمرت على شَرْرٍ مَرِيرَتُهُ	مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لا قَحْمَا ولا ضَرَعَا

فالقائد الذي يطلبه لقيط يتصف بالشجاعة ومعرفة فنون الحرب، والرأي الحكيم، والخبرة التامة بحلو الحياة ومرها، همه أمن القبيلة والمحافظة عليها، كما يفضل أن يكون قوي الجسد متين البنية، تام الرجولة، فلا هو شيخ كبير ولا هو حدث صغير.

ويبيّن لنا الشعر أن مهام سيد القبيلة تتعدى القيادة والتوجيه إلى تكفله، في أكثر الأحيان، بسد عوز الفقراء من أفراد قومه، وغالبا ما يكون له بيت خاص يأتون إليه فيجدون فيه ما يقضي حوائجهم، ويشبع بطونهم كما يرتاده

أيضا الأضياف وعابرو السبيل، فيلقون فيه الطعام والمأوى. ذلك أن سجية الكرم والجود والعطاء من أبرز الصفات التي ينبغي أن تكون في سيد القبيلة، وقد رأينا أن قيس بن عاصم افتخر بأنها هي التي جعلته سيد قومه. كما وجدها الأعشى أظهر خصال قيس بن معد يكرب سيد كِنْدَةَ حين مدحه، فقال (١٥):

وسعى لِكِنْدَةَ، غير سعي مَوَاكِلِ ، قيسُ ، فَضَّرَّ عَدُوَّهَا وَبَنَى لَهَا
وأهانَ صالحَ ماله لفقيرها وأسَى ، وأصلحَ بينها، وسعى لها
وترى له ضراً على أعدائه وترى لنعمته على مَنْ نالها
أثراً من الخير المزيّن أهله كالغيثِ صابِ ببلدةٍ فأسألهَا

وفضلاً عن ذلك فإن سيد القبيلة كان يقوم، غالباً، باحتمال الديات عن أفراد قومه، إذا لم يقدرُوا على دفعها، وقد ورد أن رئيس القبيلة إنما قيل له: «السيد المَعَمَّم» لأن كل جنابة يرتكبها رجل من عشيرته تكون معصوبة برأسه، كما تعصب به العمامة (١٦). ومعروف أن هَرَم بن سنان والحارث بن عَوف سيدي بني مُرَّة قد حملا الديات بغية إنهاء الحرب بين عبس وذبيان، مما جعل زهير بن أبي سلمى يمدح صنيعهما في معلقته، وذلك في قوله (١٧):

يميناً لنعم السيدانِ وُجدتُما على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبرَمٍ
تداركتما عبسا وذبيانَ بعدما تَفَانُوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمٍ
وقد قلتما: إن نُدرِكَ السَّلَمَ واسعا بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نَسَلَمٍ
وأصبح يُحْدَى فيهمُ من تِلادِكُم مغانمُ شَتَّى من إفالٍ مُزَنَمٍ
تَعَفَّى الكَلومُ بالمِيسِنِ فأصبحتُ يُنَجِّمُها قومُ لقومٍ غرامَةٌ
ولم يُهْسِرِقُوا بينهم مِلءٌ مُجَجَمٍ

ويبدو أن كثرة تلك الأعباء المالية التي يتحملها سيد القوم كانت دافعا كبيرا حدا بالعربي أن يخصه بامتيازات وحقوق تفوق امتيازاته وحقوقه هو، ومن ذلك ما يفرد له من الغنائم، كالمرباع والنشيطه والصفايا والفضول.

فأما المرباع فهو ربع الغنيمة، وأما النشيطه فإنه كان للرئيس أن ينشط،

عند قسمة المتاع، العِلْقُ النفيس فيأخذه، وأما الصفايا فهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، وأما الفضول فهو ما فضل عن القسمة بعد توزيع الغنائم. وقد ذكر تلك الحقوق جميعها عبد الله بن عَنَمَةَ في رثائه لِسَاطِمِ بْنِ قَيْسٍ، سيد بني شيبان (١٨):

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّنْفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

هذا عدا عن التقدير والتجلة والاحترام التي يديها الإنسان العربي لسيد القبيلة، فضلا عن الطاعة والخضوع لتوجيهه وإرشاده، فقوله القول الفصل في حل النزاعات والخلافات بين أفراد القبيلة وفروعها. ولعل في قول ابن خلدون الآتي في مشايخ البدو ما يصدق كثيرا على سادة القبائل في العصر الجاهلي: «وأما أحياء البدو فيزغ بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة» (١٩).

ويبدو من الشعر أن سعي سيد القوم في حل الخلافات لا يقتصر على قبيلته نفسها، وإنما قد تأتي إليه قبائل أخرى تحكمه في خصوماتها، كما جرى لقبيلتي عبس وذبيان، حين وقع الشر بينهما وأرادتا الصلح، فطلبتا من سُبَيْعِ التَغْلِبِيِّ، وهو سيد تغلب، أن يحكم بينهما. وقد أرسل إليه سَلْمَةُ بْنُ الْخُرْشَبِ الْأَثْمَارِيِّ شعرا، يسأله فيه أن يعدل في الحكم، فلا ينحاز إلى أحد الطرفين، شأن سيد القبيلة المنصف (٢٠):

أَبْلَغُ سُبَيْعَاءُ، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا
أَنْ بَغِيضاً وَأَنَّ إِخْوَتَهَا
نُبِّئْتُ أَنَّ حَكْمُوكَ بَيْنَهُمْ
إِنْ كُنْتَ ذَا خِبْرَةٍ بِشَأْنِهِمْ
وَتُنزِلُ الْأَمْرَ فِي مَنَازِلِهِ
فَأَحْكُمْ، وَأَنْتَ الْحَكِيمُ، بَيْنَهُمْ
حَتَّى تُرَى ظَاهِرَ الْحُكُومَةِ مِثْ
قَدَمَاءُ، وَأَوْفَى رَجَالِنَا ذِمَّةَا
ذُبْيَانَ قَدْ ضَرَمُوا الَّذِي اضْطَرَّمَا
فَلَا يَقُولَنَّ بَشَرٌ مَا حَكَمَا
تَعْرِفُ ذَا حَقِّهِمْ وَمَنْ ظَلَمَا
حُكْمَا وَعِلْمَا وَتُحَضِّرُ الْقَهْمَا
لَنْ يَعْذَمُوا الْحُكْمَ ثَابِتَا صَتْمَا
لِ الصُّبْحِ جَلَى نَهَارُهُ الظُّلْمَا

هذا وإن لم تُطَقْ حكومتهم فأنبذ إليهم أمورهم سلمًا
ولكن لا ينبغي أن يذهب بنا الظن إلى أن الإنسان العربي كان يسلم
أموره كلها لسيد القبيلة ، من دون قناعة أو فهم أو محاسبة له ، وإنما كان ، في
بعض الحالات كما يبين لنا الشعر ، إذا شعر بأنه لا يحقق مصالح القبيلة
تماماً ، أو أنه غير كفء لقيادتها وتوجيهها ، خلع عنه السيادة وجرده من
حقوقها . وهذا ما جرى لسيد بني سليم بن قيس ، فإنهم كانوا قد نصبوا
عليهم سيداً ، فلما خالفهم في بعض الأمور وثبوا عليه ، وأخرجوه من
ديارهم ، فقال يزيد بن الصَّعِقُ يهجوهم بفعلتهم (٢١) :

وإنَّ اللِّمَّةَ ذاقَ حلومَ قيسٍ فلما ذاقَ خِفَّتْهَا قَلاها
رأها لا تطيعُ لها أميراً فخلَّاهَا تَرَدَّدُ في خَلاها

ولهذا كان حرص سادة القبائل ورؤسائها على مشورة ذوي الرأي في
معظم الأمور ، ولا يكاد ينفرد سيد القبيلة بأرائه ، وإنما كان يشاور مجلساً يضم
أشراف قبيلته ، وقد يُعَبَّرُ عنه أحياناً بالملأ (٢٢) . وهذا المجلس شهد لدى قريش
تطوراً بارزاً حين أضحي له دار خاصة بمكة تعرف بدار الندوة ، حيث كان
يجتمع فيها سادتهم وكبرائهم للتشاور في أمور السلم والحرب (٢٣) .

ويشير الشعر في بعض المواضع إلى أن عدم التشبث بالرأي ، وجعل
الأمر شورى في القبيلة ، صفتان هامتان في سيد القبيلة ، لأن أي خطأ يرتكبه قد
يعرض القبيلة كلها للخطر أو الهلاك . وهذا ما جعل لقيط بن يعمر ، في وصيته
لقومه ، ينههم على اختيار رئيس يتصف بهاتين الصفتين (٢٤) :

ما انفكَّ يحلب دَرَّ الدهرِ أشطرُهُ يكون مُتَّبِعاً طَوَراً ومُتَّبِعَا

كما وجد الأعشى أن من كمال سيادة قيس بن معد يكرب الكندي أنه
لا يعتد برأيه ، وإنما يشاور أفراد قبيلته ، ويجعلهم ، دائماً ، قريين منه لهذا
الأمر (٢٥) :

فإنَّ الإلهَ حباكمُ به إذا اقتسمَ القومُ أمراً كُبارا
فإنَّ لكم قربه عِزَّةً ووسَّطَكم ملكهُ واستشارا

لقد حرص الجاهليون على السيد حرصاً جعلهم يهتمون بتنصيب أبنائه سادةً بعده؛ فكان إذا نَبِه ابن سيد القبيلة وعلا شأنه ورث رئاسة القبيلة بعد أبيه، وكانت هذه الوراثة شائعة في العصر الجاهلي، فمن ذلك أن حِصْن بن حُذَيْفَةَ أوصى ابنه كي يكون رئيساً لقومه بني فزارة، من بعده (٢٦).

وقد سجل لنا ذلك الشعر، فحينما ورث بَشَامَةَ بن الغدير السيادة عن أبيه وجده افتخر بتقلده إياها وراثته، فقال (٢٧):

وجدتُ أبي فيهم وجدِّي كليهما يُطاع ويؤقَى أمرُهُ وَهُوَ مُحْتَبِي
فلم أعمَل للسيادة فيهم ولكن أتني طائعا غير مُتَعَبِ

ويبدو أن سيد القبيلة كان إذا حضره الموت، ورأى ابنه جديراً بالسيادة، أوصاه بوصايا ترشده في رئاسته القادمة، وقد زُعم أن الحارث بن كعب، سيد القبيلة التي تُسمَّى باسمه، أوصى ابنه، فقال (٢٨):

أُبَيِّ إنَّ أباك يوماً هالكُ فاحفظْ أباك رئاسةً وتقلِّبا
وإذا لقيتُ كتيبةً فتقدِّمَنَّ إن المُقدِّم لا يكون الأُخيا
تلقى الرئاسة أو تموتُ بطعنةٍ والموتُ يأتي من نساءٍ وتجنُّبا

لكن لا يعني ما تقدم أن سيد القبيلة كان يتلقى الرئاسة وراثته دائماً، وإنما كان يُنصب فيها من هو كُفُو لها، ومُتَّصِفٌ بصفاتِها؛ سواء أكان من بيت سيادة أم لم يكن.

وبذلك بين لنا الشعر أن الإنسان العربي كان يهيمه، قبل كل شيء، أن يكون سيد القبيلة جديراً بحمل أعباء السيادة، موضحاً أنه إذا تحقق له ذلك رفعه إلى المكانة العليا في نفسه، فدافع عنه، وخضع له، ووهبه أفضل ما فاز به من الغنائم، وجعله المثال الأعلى الذي يحتذى في الحياة.

٣ - الدفاع عن القبيلة :

إن من أهم مظاهر النزعة العصبية، كما صورها لنا الشعر، أن يقف الفرد نفسه مدافعا عن القبيلة، ولا ريب أن ظروف العيش قد هيأتها لذلك، إذ جعلته حياة الصحراء فارسا يُلتم بفنون الإغارة والقتال، فهو غالبا ما يتوقع غزواً من عدو، أو إغارة خاطفة من موتور، أو صيحة حرب في القبيلة استعدادا لهجوم على حيي من أحياء القبائل الأخرى.

بيد أن بعض الشعراء ألح إلى احتمال تخاذل أفراد من القبيلة في الدفاع عنها، وتناقلهم عن نصرتها، مما يدعو إلى غضبها عليهم وسخطها منهم. ولا شك لدينا في أن حدوث ذلك قليل، وفي حالات تكاد تكون نادرة، كمثل الذي جرى في حرب «اليسوس» بين بكر وتغلب، فإن بعض أشرف بكر لم يشتركوا في المعارك الأولى، ولعلمهم رجوا أن تتصالح القبيلتان، وتعودا عن القتال إلى ما كان بينهما من ودّ ووثام. ومن هؤلاء الحارث بن عبّاد الذي اعتزل الحرب مع أرهاط بني بَجِيم، فانبرى سعد بن مالك، جد طرفة الشاعر، يحضه، ويغمز من جانبه، لوقوفه موقف الخذلان لقومه (٢٩):

يا بُؤْسَ للحربِ التي وَضَعْتَ أراهاً فاستراحوا
والحربُ لا يبقى لصا حبها التَّخِيلُ والمراحُ
إلا الفتى الصَّبَّارُ في النُّ جَدَاتِ والبفرسُ الوقَّاحُ

فالجبان الرعديد هو الذي يتخلى عن قبيلته في حربها، أما الفارس الشجاع فيهرع لنجدتها مخلفا وراءه حياة الراحة واللهم.

ولكن حتى في حالة الحارث بن عبّاد فإن النزعة العصبية عادت تدفعه إلى مشاركة القبيلة في القتال والدفاع عنها كبقية الأفراد الآخرين، وخاصة أن ابنه بُجَيْرًا كان قد قتل، وهو يسعى في الصلح لدى بني تغلب، وقد سجل موقفه الجديد في شعره حين قال (٣٠):

قَرَّباً مَرَبِطَ النُّعَامِ مِني لَقِحْتُ حربُ وائلٍ عن جِمالِ

لم أكن من جُناتها علم الله - م - وإني بحرّها اليومَ صال
لا بُجيرٍ أغنى فيلاً ولا زهطُ - م - كُليبٍ تَزَاجروا عن ضلالِ

فالدفاع عن القبيلة وحماها من واجبات الفرد الأولى، بل هو مفخرته
الكبرى التي يعتدّ بها، وما الدفاع عن القبيلة إلا دفاع عن شخصه وشرفه
وعرضه. وقد صور المُلتمس الضُبَعي ذلك أبرع تصوير، في رده على شخص
زعم أن الشاعر سيتخلى عن قبيلته ويفارقها لخلاف شجر بينه وبينها(٣١):

أُمْتَقِلاً من آلِ بُهْثَةَ خِلْتَنِي أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَيْنَمَا
أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَعِرْضِي عِرْضُهُمْ كَذِي الْأَنْفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يُكْشَمَا

لقد بلغ الشاعر ذروة التعبير عن محاماته عن القبيلة، حين جعلها في
منزلة الأنف، وجعل الدفاع عنها كدفاع الإنسان عن أنفه، إذا خاض حرباً أو
شهد قتالاً، وإذا علمنا أن الأنف رمز الشرف والعزة والكبرياء لدى العربي
أدركنا مدى ما يبذله لصونه والحفاظ عليه.

ويتبع الدفاع عن القبيلة الدفاع عن أرضها وحماها، ذلك أن الاعتداء
عليها اعتداء على القبيلة نفسها، والذود عنها ذود عن شرفها ومكانتها بين
القبائل الأخرى. وهذا ما رآه عمرو بن يربوع الغنوي وعبر عنه في شعره،
مفتخراً بأنه ذاد مع قومه عن نجد بفرسان أشداء، وخيل قوية، وسلاح
شائك(٣٢).

وفضلاً عن الدفاع عن القبيلة وحماها فإن من شأن الشاعر ذي النزعة
العصبية أن يفتخر بقوتها وشجاعة فرسانها، الذين في مقدورهم خوض المعامع
والحروب، وشن الغارات، وقتل الأبطال أو أسرهم، وهزيمة الأعداء
والخصوم.

وهو في هذا يعلي من هية القبيلة وسطوتها، ويباهي بتصوير فتكها
وسلبها ونهبها، واختراق حمى أعدائها، على نحو ما صوره لنا عمرو بن قميئة
من مشهد لغارة شنتها قبيلته نُعلبة بن عُكابة، على أعدائها، حين قال(٣٣):

وَمَلُومَةٌ لَا يَخْرُقُ الطَّرْفُ عَرْضَهَا
تَسِيرُ وَتُزْجِي السَّمَّ تَحْتَ نَحُورِهَا
عَلَى مُقَدَّجَاتٍ وَهِنَّ عَوَابِسُ
نَبَذْنَا إِلَيْهِمْ دَعْوَةً، يَا آلَ مَالِكِ،
فَسُرْنَا عَلَيْهِمْ سَوْرَةَ ثَعْلَبِيَّةً
وَأَرْمَاخُنَا يَنْهَزْنَهُمْ نَهَزَ جَمَّةٍ
فَمَا أَتَلَفْتَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ نَفُوسِنَا
فَقَلْنَا: هِيَ النَّهْبَى وَحَلَّ حَرَامُهَا

لَهَا كَوَكَبٌ فَخَمَّ شَدِيدٌ وَضُوحُهَا
كَرِيَّةٌ إِلَى مَنْ فَاجَأَتْهُ صَبُوحُهَا
ضَبَائِرُ مَوْتٍ لَا يُرَاحُ مُرِيحُهَا
لَهَا إِرْبَةٌ إِنْ لَمْ تَجِدْ مَنْ يُرِيحُهَا
وَأَسِيفُنَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ نُضُوحُهَا
يَعُودُ عَلَيْهِمْ وَرَدُّنَا فَنَمِيحُهَا
وَإِنْ كَرُمْتَ فَإِنَّا لَا نُنُوحُهَا
وَكَانَتْ جَمِيَّ مَا قَبَلْنَا فَنُيْحُهَا

لقد أبان الشاعر عن أن أقوى مظاهر العصبية تبرز في أشد الظروف وأقساها، وهل يكون ذلك إلا عند القتال ومواجهة الفرد للموت في ساحة المعركة؟ وقد جُلِّيت تلك العصبية أكثر جلاء في هذه الصيحات باسم القبيلة، وكأن الفارس كان يحاول أن يحتمي بعصبيته من طعنات الرماح وضربات السيوف، أو كأنه كان يريد أن يؤكد لنفسه أنه ليس وحيدا في المعركة، وإنما هو من الجماعة التي ينادي باسمها.

لقد انشأ الشاعر العربي زهواً بقوة قبيلته وعزتها ومنعتها، فكان يعلن انتصاراتها على القبائل المعادية بأشعار تلهب حماسة، وسرعان ما تتناقلها الركبان، ويغدو صداها مدويا في أرجاء الجزيرة العربية كلها، فترهب العدو والخصم، وتفرح الصديق والحليف. وعلى شاكلة تلك الأشعار قول عامر بن الطفيل (٣٤):

صَبَحْنَا الْحَيَّ مِنْ عَبَسٍ صَبُوحاً
وَأَبَقِينَا لِمُرَّةٍ يَوْمَ نَحْسٍ
بِكَأْسٍ فِي جَوَانِبِهَا الثَّمِيلُ
وَإِخْوَتِهِمْ فَقَدْ ذَهَبَ الْغَلِيلُ
فَدَلَّ الْأَبْلُخُ الْمُخْتَالُ إِنَّا
نُخَيْسُهُ وَعَزَّ بِنَا الدَّلِيلُ

وليس أبعث لفخر الفرد من انتصار قبيلته، وعودتها إلى أحيائها محملة بالغنائم تجر وراءها الأسرى، وخاصة سبايا النساء؛ إذ إن سيهن مظهر

لمدى قوة القبيلة وسطوتها، ولمدى ضعف العدو وتخاذله، لأن القبيلة لا تتخلى عن نساؤها إلا بعد أن تهزم هزيمة منكرة، ثم إن بقاء السبايا بأيدي القبيلة المنتصرة يذكّرهما دائماً بفوزها، ويبقى لظى محرقاتها في قلوب أعدائها، وعارا مشينا لاصقاً بهم أمام القبائل الأخرى. ولهذا وجدنا بشر بن أبي خازم الأسدي يفخر بانتصار قومه على بني عامر وسبي نسايتهم (٣٥):

لحوناهُمْ لَحْوُ الْعُصْبِيِّ فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةِ يَشْكُو الْهَوَانَ حَرِيْبُهَا
تَبَيْتُ النِّسَاءَ الْمُرْضِعَاتُ بِرَهْوَةِ نَفْرًا مِنْ هَوْلِ الْجَنَانِ قَلْبُوبُهَا
بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ مِنْ الشَّلِّ وَالْإِيْجَافِ تَدْمَى عُجُوبُهَا
عُضَارِيْطُنَا مُسْتَحْقَبِيْرِ الْبَيْضِ كَالدَّمَى مُضْرَجَةً بِالزَّعْفَرَانِ جِيُوبُهَا

فهم قد أغاروا على بني عامر فهزموهم شر هزيمة، ثم سطوا على أموالهم ومتاعهم فانتهبوها، أما نساؤهم فقد سُبيت مع رضعها، وجمعت في منخفض من الأرض، وقلوبها واجفة خائفة، تكاد تُقطع من فزعها وجزعها، ثم حملت على متون الخيل مردفات خلف العبيد، وأخذت الخيل تسرع بهن، وهن يعولن ويصرخن، بعد أن كن حرائر ممتنعات في بيوتهن. لقد أذلوا بني عامر مرتين: مرة حين هزموهم في أرض المعركة، ومرة أخرى حين سبوا نساءهم مع أطفالهن، وتركوا للعبيد والأجراء أمرهن كي يحملوهن مع الغنائم والأسلاب والأمتعة.

وشبيه بذلك أيضاً ما يصوره لنا عوف بن عطية التيمي لمشهد نسوة قد أُغير عليهن فهن يتراكن فرعات جزعات قد حُسرت رؤوسهن؛ وسقطت الحُمر عن وجوههن، وتهللت ثيابهن وذلك كله خشية السبي والعار اللذين سيلحقان بهن (٣٦).

إن اعتداد العربي بقوة قبيلته، واعتزازه بمقدرتها، وتعصبه الشديد نحوها، جعلته لا يرى قوة فوق قوتها، ولا مقدرة تفوق مقدرتها. ويبين لنا الشعر أن رؤيته هذه لا تقتصر على القبائل التي حوله فقط، وإنما تتعداها لتشمل الملوك أيضاً، فمهما كانت عظمة الملك وهيبته وسيطرته فإنها لا تنال

من مكانة القبيلة في نفسه ؛ إذ هي عنده أعظم منزلة وأرقى شأنًا، لأنها تمنع أي ملك كان من أن يتناول عليها، أو أن يحاول إخضاعها.

وذلك ما رآه عامر بن جُوَيْن الطائي في قبيلته، حين شرع المنذر بن النعمان الأكبر ملك الحيرة، بتهديده وتهديد قومه، فرد عليه عامر قائلاً (٣٧) :

تَعَلَّمْ، أَبَيْتَ اللَعْنَ، أَنْ قَنَاتْنَا تَزِيدُ عَلَى غَمَزِ الثَّقَافِ نَصْعَا
أَتَوْعِدُنَا بِالْحَرْبِ، أُمُّكَ هَابِلٌ، رَوَيْدُكَ بَرْقَا، لَا أَبَالِكَ، خُلْبَا
إِذَا خَطَرْتُ دُونِي جَدِيدَةً بِالقَنَا وَحَامَتُ رِجَالَ العَوْثِ دُونِي تَحْدُبَا
أَبَيْتُ الَّتِي تَهْوَى وَأَعْظَمْتُكَ الَّتِي تَسُوقُ إِلَيْكَ المَوْتَ أَخْرَجَ أَكْهَبَا

إن قوة طيء لتضاهي قوة النعمان وتفوقها، لهذا فإن وعيده لهم ما هو إلا كبرق لامع خادع لا غيث وراءه، وخاصة إذا اجتمع حياها، جديدة والغوث، وامتطى أبطالهما صهوات الخيول وأشهروا السيوف والرماح، وارتصت صفوفهم كبنيان مرصوص، فعندئذ لا يجد الملك لديهم إلا أسلحة تجلب الموت الأسود له. لقد رأى الشاعر في قبيلته درعا حصينا يمنع أشد الملوك من اختراق حماه أو زعزعة أركانه.

وقد يحس الشاعر أن ملكاً ينوي بقبيلته شراً، وأنه يتحين سانحة للغدر بها والقضاء عليها، عند ذلك ينبري للدفاع عنها مظهراً ما تتصف به من عزة قعساء وشرف تليد ونسب عريق، وما تتميز به من قوة وشدة وبأس في المعارك والحروب، لعله بذلك يرهب الملك وينذره عاقبة غدره وخيائته. وهذا ما نراه عند الشاعر يزيد بن الخدّاق الأسديّ، حين شعر أن النعمان بن المنذر يضمم العداء لقبيلته، وأنه ينوي الغدر بها والإغارة عليها، فأنشأ يخاطبه (٣٨) :

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِيعٌ يَخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا يُبْدِي
فَإِذَا بَدَا لَكَ نَحْتُ أَثْلَيْنَا فَعَلَيْكَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا خَرْدِ
يَأْبَى لَنَا أَنَا دَوُو أَنَسْفِ وَأَصُولُنَا مِنْ مَحْتِدِ المَجْدِ

إِنْ تُغْزُ بِالْخَرْقَاءِ أَسْرَتْنَا تَلَقَّ الْكُتَّابُ دُونَنَا تُرْدِي
أَحْسَبْتْنَا لِحِمَا عَلِيٍّ وَضَمٍّ أَمْ خَلَّتْنَا فِي الْبَأْسِ لَا تُجْدِي
وَمَكَّرَتْ مَعْتَلِيًّا مَخْنَتْنَا وَالْمَكْرُ مِنْكَ عِلَامَةُ الْعُمْدِ
وَهَزَزَتْ سَيْفَكَ كَيْ تَحَارِبَنَا فَانظُرْ سَيْفَكَ مِنْ بَهِّ تُرْدِي

ولا يقف الأمر عند تهديد الشاعر للملوك وإنما يتعداه إلى التطاول عليهم، أحياناً، والنيل منهم؛ إِمَّا بِإِذْلَالِهِمْ كَالَّذِي نُسِبَ إِلَى هِشَامِ بْنِ خَلْفِ الْكِنَانِيِّ مِنْ فَعْلَةٍ شَنْعَاءَ، تَهْدَفُ إِلَى إِهَانَةِ النِّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ فِي حِجَّةِ إِلَى مَكَّةَ (٣٩). وَإِمَّا بِالْتَعَدِّيِّ عَلَيْهِمْ وَضَرْبِهِمْ، كَمَا زُعمَ مِنْ ضَرْبِ مَعْبُدِ بْنِ عَضَمِ التَّغْلِبِيِّ لِلْمَلِكِ شُرْحَيْلِ الْكِنْدِيِّ بِقَوْسِهِ وَشَجَّهَ بِهَا، لِأَنَّهُ نَالَ مِنْ قَبِيلَتِهِ (٤١). وَإِمَّا بِقَتْلِهِمْ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْ قَتْلِ عَمْرُو بْنِ كَلثُومٍ لِلْمَلِكِ عَمْرُو بْنِ هِنْدٍ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ جَابِرُ بْنُ حُنَيْيٍ التَّغْلِبِيُّ فِي قَوْلِهِ (٤١):

أَلَا تَسْتَحِي مَنَا مَلُوكٌ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا لَا يَبُوءُ الدَّمُ بِالدَّمِ
نِعَاطِي الْمَلُوكِ السَّلْمَ مَا قَصَدُوا بِنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ
وَكَائِنْ أَرَزْنَا الْمَوْتَ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ إِذَا مَا أَرْدَرَانَا أَوْ أَسَفَّ لِمَائِمِ

وهكذا صور الشعر لنا موقف الإنسان العربي من قبيلته تصويراً أبان فيه عن مدى حبه لها ومشاعره تجاهها، وقد جُلِّيَ ذلك في دفاعه عنها ومناجزته لأعدائها، وفي نظرته إليها على أنها قوة ضاربة، لا يستطيع الملوك الأقوياء أن ينالوا منها. ويبدو أن هذه الرؤية هي التي ثَبَّتَتِ الروحَ الجماعية والعصية القبلية في كيانه، فجعلته أكثر التحاماً بالقبيلة وأشدَّ نزوعاً إليها.

٤ - الحنين إلى موطن القبيلة :

لا شك في أن معظم القبائل العربية، التي توزعت في أرجاء الجزيرة العربية، كانت في حركة مستمرة وسعي دائم وراء الماء والمرعى. بيد أن تنقل القبائل وارتحالها لا يعينان أنها كانت تنأى بعيداً عن أرضها، فلا يُعرف لها موطن، ولا يُحد لها مكان، ذلك أن أغلب تلك القبائل في العصر

الجاهلي كان لها أماكن معروفة ومواقع تختص بها من دون غيرها. وحتى إذا دفعتها السنة والحاجة إلى أن تتجمع بلاداً أخرى حيناً من الزمن فإنها لا تلبث أن تعود إلى أراضيها ومنازلها.

وقد حفل الشعر، في مواقع لا تحصى منه، بذكر أماكن القبائل، وكثيراً ما يكتفي بذكر اسم الموقع للدلالة على القبيلة التي تقيم فيه. وكان الأحنس بن شهاب التغلبي من الشعراء الذين قرنوا عدداً من القبائل بأماكنها (٤٢).

لِكُلِّ أَناسٍ مِنْ مَعَدٍ عِمارةُ	عَرَوْضُ إِلَيْها يَلجؤونَ وَجانِبُ
لُكَيْزٍ لَها البَحْرانِ وَالسَّيفُ كُلُّهُ	وَإِنْ يَأْتِها بِأسٍ مِنَ الهِنْدِ كَارِبُ
وَبِكْرُ لَها ظَهْرُ العِراقِ وَإِنْ تَشَأُ	يَحِلُّ دُونِها مِنَ اليمامةِ حاجِبُ
وَصارَتْ تَمِيمُ بَينَ قَفِّ وَرَمَلَةٍ	لَها مِنَ جِبالِ مَتائى وَمذاهِبُ
وَكلبُ لَها حَبْتُ فَرَمَلَةٍ عالِجِ	إِلَى الحَرَّةِ الرَّجلاءِ حَيْثُ تُحارِبُ
وَبَهْرانُ حَيٌّ قَدِ عَلِمنا مَكانَها	لَها شَرَكُ حَولِ الرُّصافَةِ لِاجِبُ
وَغارَتْ إِيادُ فِي السَّوادِ وَدُونِها	بِرازِيقُ عُجمٍ تَبغِي مِنَ تُضارِبُ

وكما هو واضح في الأبيات فإن الشاعر قد خص القبائل بأمكنة رحيبة، ولم يقيد بها بمواقع محددة، مما يدل على أنها، مهما تنقلت وارتحلت، تعود في نهاية المطاف إلى مواطنها. ذلك أن منازل القبيلة واضحة معروفة لا تبدل إلا لدواعي قاهرة وأسباب قوية، كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها، أو أن يصيبها القحط سنين متتابعة، فعندئذ تضطر إلى ترك ديارها للبحث عن ديار جديدة. وهذا ما حدث لإياد إذ أزاحها بنو عبد القيس عن مواطنها في البحرين، ثم شتت الفرس شملها في العراق (٤٣). وقد ألمح الأحنس في البيت الأخير إلى ما أصاب إيادا من تشتت على أيدي الفرس.

ونحن بذلك إنما نحاول أن نعطي صورة عامة عن القبائل وأماكنها لمنهد الحديث عن حنين الشعراء إلى مواطن قبائلهم التي رحلوا عنها

راضين أو مضطرين لذلك الرحيل .

فضلاً عن القبائل السابقة ومواطنها، التي وردت في شعر الأحنس، فإننا نجد، من القبائل العدنانية، قريشاً قد نزلت بمكة وما جاورها، وثقيفاً بالطائف، وهذيلاً بقرب جبال السّراة بالحجاز، وكِنانة بأرض يَهامة . كذلك كان بنو عامر بن صَعْصَعَة يستقرون غالباً، غربي نجد، وعبس وذبيان وسائر غطفان كانوا ينزلون بنجد شرقي يثرب . كما نزلت بنجد أيضاً ضِبّة وتميم، وانحدر قسم منهما إلى اليَمامة وهَجْر . وكانت معظم قبائل ربيعة تنتشر في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، بين عُمان حتى أطراف العراق والجزيرة .

ونجد، من القبائل القحطانية، قبائل حَمِيرَ باليمن وجنوبي الجزيرة العربية، ثم من القبائل التي هاجرت من الجنوب واستقرت في أنحاء مختلفة الأوس والخزرج بيثرب وما حولها، وطَيء بين جبلي أجأ وسلمى، والمناذرة بالحيرة، والغساسنة ببلاد الشام . ولا يخفى أن شعر الأطلال زاخر بالإشارات إلى تلك الأمكنة، مفصّلاً فيها تفصيلاً واسعاً .

ومما لا ريب فيه أن الشعر الجاهلي صورّ شدة تعلق الإنسان العربي بمواطن القبيلة ومرابعها، وبين فيه الشعراء أن القبيلة كلها تظل ملتصقة بأرضها التي تعدّها حمىً لها، لا تستطيع القبائل الأخرى الاعتداء عليه، حتى إذا أصابها أمر اضطرها إلى مغادرة منازلها والبعد عن ديارها فإنها تبقى نحن وتصبو إلى تلك المعاهد، ويبقى الفرد فيها مشوقاً إلى أرض القبيلة الأم، يشعر نحوها بحنين طاغ وشوق جارف .

وقد عبّر عن مثل ذلك الشعور ثعلبة بن غيلان الإياديّ أبدع تعبير، حين أثارته ذكرى مواطن قبيلته إياد في البحرين، وكانوا، كما مر بنا، قد فارقوها إلى سواد العراق، وابتعثه الشوق والحنين إلى مراتع الطفولة فيها، وتالت مشاهد الماضي على مخيلته بمختلف الصور المحببة، فاهتزت نفسه ألماً وحرقة لما آل إليه مع قبيلته من غربة دائمة، حافلة بضروب الذل

والهوان (٤٤):

تَجُنُّ إِلَى أَرْضِ الْمُعَمَّسِ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا ظَهَرَ الْجُرَيْبِ فَرَائِسُ
بِهَا قَطَعْتَ عَنَا الْوَذِيمَ نَسَاؤُنَا وَخَرَسَتْ الْأَبْنَاءَ فِيهَا الْخَوَارِسُ
إِذَا شَتَّ غَنَانِي الْحَمَامُ بِأَيْكَةِ وَلَيْسَ سِوَاءَ صَوْتِهَا وَالْعَرَانِسُ
فِيَا حَبْدًا أَعْلَامُ يَيْشَةَ وَاللَّوَى وَيَا حَبْدًا أَخْشَافُهَا وَالْجَوَارِسُ
أَقَامَتْ بِهَا جَسْرُ بْنُ عَمْرٍو وَأَصْبَحْتُ إِيَادُ بِهَا قَدْ ذَلَّ مِنْهَا الْمَعَاطِسُ

وقد يضطر الشاعر بمفرده إلى مفارقة القبيلة وموطنها، وتناهى به الغربة بعيدا عن مراتعها وبطيح به الفراق إلى أرض لا يجد فيها قريبا أو حبيبا، عند ذلك تشتد به المواجه، وتتتابه الحسرات، وتتسعَّر به الأشواق إلى رؤية المهد الأول، فتجيش النفس أسي وحسرة، وتنزع متلهفة نحو موطن القبيلة. وهذا ما أصاب زامل بن عُفَيْر الطائِي الذي نأت به ديار الغربة حتى حطته عند الحارث الأكبر الغساني، فمدحه ونال عنده منزلة ومقاما كريما، لكن وطن القبيلة ظل يجذبه إليه، وظل يجد نفسه غريبا في قوم غرباء (٤٥):

أَبْلَغِ الْحَارِثَ الْمُرْدَدَّ فِي الْمَكِّ رُمَاتٍ وَالْمَجْدِ جَدًّا فَجَدًّا
أَنْسِي نَازِرًا إِلَيْكَ وَدُونِي عَاتِقَاتٍ غَاوِرَنَ قَرِيبًا وَبُعْدَا
أَزَلُّ نَازِلٌ بِمَشْوَى كَرِيمٍ نَاعِمُ الْبَالِ فِي مَرَاحٍ وَمَغْنَى
غَيْرَ أَنَّ الْأَوْطَانَ يَجْتَذِبُ الْمُرَّ إِلَيْهَا الْهَوَى وَإِنْ عَاشَ كَدًّا
وَتَأْبِي بِالشَّامِ مُفِيدِي حَسْرَاتٍ يَقْدُدَنَّ قَلْبِي قَدًّا
لَيْسَ يَسْتَعِذُّ الْغَرِيبُ مَقَامَا فِي سِوَى أَرْضِهِ وَإِنْ نَالَ جَدًّا

أما المتلمس، فإنه، حين حرم عليه عمرو بن هند العودة إلى بلاده في أرض العراق، نازعته نفسه شوقا وتحنانا إلى موطن القبيلة، وملت تجواب البلدان والآفاق على متن الناقة، فإذا هي تخلع مشاعرهما على صاحبة حلها وترحالها، وتندمج معها في وحدة القلق والمعاناة، وإذا صوت النفس وصوت الناقة يغدوان صوتاً واحداً يعبر عن ألم الغربة وقسوة البعد (٤٦):

حَنَّتْ قَلُوصِي بِهَا وَاللَّيْلُ مُطَّرِقٌ
 أَنِّي طَرَبْتُ وَلَمْ تُلْحِي عَلَيَّ طَرَبٍ
 حَنَّتْ إِلَى نَخْلَةِ الْقُصُوفِ فَقَلَّتْ لَهَا:
 أُمِّي شَامِيَةٌ، إِذْ لَا عِرَاقَ لَنَا،
 لَنْ تَسْلُكِي سُبُلَ الْبَوَايَةِ مُنْجِدَةً
 بَعْدَ الْهُدُوءِ وَشَاقَتَهَا النَّوَاقِيسُ
 وَدُونَ الْفَيْكِ أَمْرَاتُ أَمَالِيسُ
 بَسَلْتُ عَلَيْكَ أَلَا تَلِكِ الدَّهَارِيسُ
 قَوْمًا نَوَدُّهُمْ إِذْ قَوْمُنَا شُوسُ
 مَا عَاشَ عَمْرُو وَمَا عُمِّرَتْ قَابُوسُ

وشبيه بهذا ما أصاب دَوْسَرَ بْنَ دُهَيْلِ الْقُرَيْعِيِّ حين فارق موطنه نجداً، وامتدَّ زمن غربته، لكن نفسه ظلت أمينة لعهدتها القديم كما ظلت ناقتة تطرب كلما لقيت قلاصاً آتية من مراتعها الأولى (٤٧).

ونرى في الشعر أن المرأة لم تكن أقل تعلقاً بموطن القبيلة من الرجل، فقد عانت رامة بنت حُصَيْنِ الْأَسَدِيَّةِ معاناة شديدة حين شحطت بها النوى بعيداً عن ديار قومها، وألقتها في قرية من الحضر. لقد اشتدت بها نوازع الحنين إلى مراتع حياها، ومراتع صباها، فطفحت نفسها بفيض من الشوق إليها، وهفت إلى النسائم الجنوبية التي تهب عليها، وشامت ببصرها إلى لمعان بروقها، وتذكرت بأسى وحسرة خضرة مراتعها وتجاوب صفير طيورها في هدأة الليل وقارنته بصياح الديكة ونقيق الضفادع التي تسمعها في غربتها، فإذا البون شاسع والفرق كبير، وإذا قلبها ينبض بحب مواطن القبيلة ومناخها وحيوانها وكل ما يمت إليها (٤٨):

أَلَا مَ عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ يَكُ ذَا هَوَى
 تَهْجُهُ الْجَنُوبُ حِينَ تَغْدُو بِنَشْرِهَا
 وَمَنْ لَامَنِي فِي حَبِّ نَجْدٍ وَأَهْلُهُ
 لِعَمْرُكَ لِلْعَمْرَانِ غَمْرًا مُقَلِّدٍ
 وَخَوْ إِذَا خَسَوْسَقَتُهُ ذَهَابُهُ
 وَصَوْتُ مَكَائِي تَجَاوَبُ مَوْهِنَا
 أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ فَرَارِيحِ قَرْيَةٍ
 بِنَجْدٍ يَهْجُهُ الشُّوقُ شَتَّى نَزَائِعُهُ
 يَمَانِيَةٌ وَالْبَرْقُ إِنْ لَاحَ لَامِعُهُ
 فَلَيْمَ عَلَى مِثْلِ وَأَوْعَبَ جَادِعُهُ
 فذُو نَجَبٍ غُلَانُهُ وَدَوَافِعُهُ
 وَأَمْرَعُ مِنْهُ تَيْبُهُ وَرِبَائِعُهُ
 مِنْ اللَّيْلِ، مَنْ يَأْرُقُ لَهُ فَهَوُ سَامِعُهُ
 تَرَاقِي وَمَنْ حَيَّ تَبَقُّ ضَفَادِعُهُ

وهكذا أوضح لنا الشعر عن أن تعلق الإنسان العربي بالقبيلة ارتبط بتعلقه بمواطنها وديارها، فأضحى حبه لها ممزوجاً بحبه لأرضها، ونزوعه نحوها مقروناً بنزوعه إلى منازلها، ومن ثمَّ أظهر الشعر أن دفاعه عن القبيلة يضاهي دفاعه عن موطنها، ذلك الموطن الذي يقترن في ذهنه بالقبيلة، ولا يمكنه بأية حال أن يفصل بينها وبين ديارها، لأنهما يشكلان معا حماه الذي يبذل نفسه وماله دفاعاً عنه.

٥ - رثاء أفراد القبيلة :

إن الأشعار السابقة صورت الإنسان العربي وقد تغلغل في نفسه حب قبيلته حتى غدا هو والقبيلة كيانا واحداً، يسره فرحها، ويؤلمه حزنها. ولعل مرد ذلك يعود إلى شمول الروح الجماعية بين الأفراد وإحساسهم بالمصير المشترك، فضلاً عن شعورهم بارتباط وجودهم بوجود القبيلة وحياتهم بحياتها. وإذا كان الشعراء قد جَلُّوا ذلك في تصويرهم لتمسك الفرد بنسب القبيلة والخضوع لها ولسيدها، وللدفاع عنهما، ثم لحنينه الجارف إلى ديارها، فإن رثاءهم لقتلاها ولمن فقد من أبنائها كان مظهرًا أكثر تعبيراً عما تكنه عواطف الفرد من ميل شديد تجاه قومه ونزوع قوي إليهم.

ولعل ما زاد في إظهار صورة رثاء أفراد القبيلة في الشعر أن الحياة التي عاشوها كانت غالباً عرضة لخطر الهلاك، وكان الواحد منهم يجزع جزعاً شديداً أن يسمع، بعد كل غارة يقوم بها قومه أو تقوم بها قبيلة أخرى عليهم، صوت النعي يدوي بأسماء رجال عشيرته الذين جُدُّلوا على أرض المعركة، حينئذ تنتزى نفسه حزناً، ويفعم قلبه أسى، فيحرم على نفسه اللهب واللذائذ، ويعكف على نديهم والنواح عليهم. ولا ريب في أن نفسه تمتلىء حقدًا وبغضاً وضحينة على الأعداء، تتبدى فيما يؤلي على نفسه أحياناً من الأيمان المغلظة من أنه سيتقم لقومه أشد الانتقام.

ولنا في شعر الربيع بن زياد العبسي أفضل شاهد على ذلك، فقد أتاه نعي مالك بن زهير، وهو أحد أشرف بني عبس، وعلم أن بني فزارة غدرت

به، وقتلته، فثار به الغضب، وهاجت كوامن الثأر في نفسه، فألى على نفسه أن يعتزل النساء، وأن يعد ما لديه من قوة وعدة وعتاد حتى يثار له من قاتليه(٤٩):

إني أركت فلم أغمض حارٍ من سبيء النبا الجليل الساري
 من مثله تومي النساء حواسراً وتقوم مَعُولَةً مع الأسحارِ
 أبعده مقتل مالك بن زهير ترجو النساء عواقب الأظهارِ
 ما إن أرى في قتله لذوي القوي إلا الممطي تُشدُّ بالأكوارِ
 ومجنبات ما يذقن عذوفاً يقدفن بالمهترات والأمهارِ
 ومساعراً صدأ الحديد عليهم فكأنما تطلّي الوجوه بقارِ

وقريب من هذا ما عبر عنه في شعره دريد بن الصمة الذي كبر عليه مقتل أفراد قومه على يد بني الحارث بن كعب، فانبرى يرثيهم رثاء ينطوي على تهديد ووعيد لبني الحارث بانتقام ما بعده انتقام(٥٠). وكان عبد الله بن ثور العامري قد أثاره ما رأى من عيون تذرّف حزناً على من صرّع في المعركة من قبيلته، فدفعه الحزن والغضب إلى التأهب والإعداد لجولة أخرى يثار لهم فيها(٥١).

وأولئك الأفراد الذين صرّعوا، وفقدتهم القبيلة، ليسوا في نظر الشاعر إلا أناساً في منتهى البطولة والسؤدد والشرف؛ فهم يجمعون الخلال الحميدة كلها، ويتصفون بأنبال الصفات وأفضلها. أليسوا هم الذين قد ضحوا بأنفسهم فداء لقبيلتهم وإعلاء لشأنها؟ أليسوا هم قد جادوا بدمائهم فبرّوا أكرم الكرماء؟ وقد عكس لنا هذه الرؤية شداد بن الأسود في رثائه لقتلى قومه يوم بدر(٥٢).

تحيي بالسلامة أم بكرٍ وهل لي بعد قومي من سلام؟
 فماذا بالقليب قليب بدرٍ من القينات والشرب الكرام
 وماذا بالقليب قليب بدرٍ من الشيزى تكلل بالسنام

وَكَمْ لَكَ بِالطَّوِيِّ طَوِيٌّ بَدْرٍ من الحَوَمَاتِ والنَّعَمِ المُسَامِ
 وكم لك بالطَّوِيِّ طَوِيٌّ بَدْرٍ من الغَايَاتِ والدُّسْعِ العِظَامِ
 وإِنَّكَ لَو رأيتَ أبَا عَقِيلٍ وأصْحَابَ الثَّنِيَّةِ من نَعَامِ
 إِذَا لظَلَلتَ من وَجَدِ عليهم كَأَمْ السَّقْبِ جَائِلَةَ المَرَامِ

لقد تراحمت الأشجان في نفس الشاعر، وتفاقم فيها الحزن، وخيم اليأس الأسود على قلبه، وأخذت التساؤلات تطرق عقله وفكره، كيف يعيش، وقد قتل سادة القبيلة وعظماؤها؟ وأية قيمة لوجوده، وقد تلاشى وجود أشراف قومه؟ لا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر جعل أفول حياة قومه في منزلة أفول حياته هو، ولم تعد الحياة لديه جديرة بالمسرة والمتعة واللهو، بعد أن أصابت المنايا أفراد العشيرة وطواهم الردى.

ولعل ما كان يلهب ناثرة الشعراء، ويدفعهم إلى التعبير في أشعارهم عن مزيد من الحزن على أفراد القبيلة، ومزيد من الغضب لمقتلهم، هو الحياة القبلية وما كان شائعاً فيها من اجتماع الحي ليكاء القتلى وندبهم والنواح عليهم، ثم إعلان مظاهر الحزن والأسى أمام القبائل الأخرى. وهذا ما فعلته قريش عقب يوم بدر؛ إذ ورد أنها «ناحت على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكة إلا فيها نوح، وجزَّ النساء شعر الرؤوس. وكان يُؤتى بإراحة الرجل منهم، فتوقف بين أظهرهم، فينوحون حولها» (٥٣). ويبدو أن إطالة مدة الحزن كانت تهدف إلى تأجيج نيران الانتقام في صدور أبناء القبيلة لكي يثاروا لقتلاهم من الأعداء.

وتشير الأشعار، في هذا المجال، إلى أن النساء كنَّ يقمن بالرتاء أيضاً على أفراد القبيلة فضلاً عن نديهن ونواجهن، وذلك لما لهن من رقة شعور ولطف إحساس، ولما يتتابهن من ألم المصاب بفقد الأحباب والأزواج والأقرباء، الذين هم عمادهن في معاشهن، ودرعهن في حياة خطيرة تعرضهن للسبي والاختطاف.

وقد عبرت الجُرْنِق بنت بدر عن ذلك خير تعبير حين أنها نعتي أفراد

عشيرتها ينبئها بأن سهام المنايا قد أردتهم صرعى في معركة دارت رحاها بينهم وبين أعدائهم؛ فإذا هي لا ترى فيهم إلا فرسانا أقوياء، وأجوادا كرماء، وأشرفا نبلاء، قد حازوا كل مكرومة؛ فأيديهم سخية بالعطاء، وذيلهم ظاهر من الأدران، وشجاعتهم مضرب الأمثال، وعطفُ بعضهم على بعض لا يقف عند حد، حتى يمتنع على المرء أن يميز غنيهم من فقيرهم وموسرهم من معسرهم (٥٤):

لا يَبْعُدُنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ	سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَفَّةُ الْجُزْرِ
النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ	وَالطَّيِّبُونَ مَعَايِدَ الْأَزْرِ
قَوْمٌ إِذَا رَكَبُوا سَمِعَتْ لَهُمُ	لَغَطًا مِنَ التَّأْيِيهِ وَالزَّجْرِ
وَالخَالِطُونَ نَجِيَّتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ	وَذَوِي الْغَنَى مِنْهُمْ بِذِي الْفَقْرِ
هَذَا ثَنَائِي مَا بَقِيَتْ لَهُمُ	فَإِذَا هَلَكْتُ أَجْنُنِي قُبْرِي

ونستدل من بعض الأشعار على أن الرثاء لم يكن مقتصرًا على أفراد القبيلة الذين قتلوا في المعارك والحروب، وإنما قد يرثي الشاعر قبيلته إذا أمت بها المصائب، وأحدثت بها الأخطار فمزقتها كل ممزق، وأهلكت كثيراً من أبنائها. كالذي نجده لدى أبي دُوَادِ الإيادي من رثاء حار على قبيلة إياد، التي، كما أشرنا من قبل، قد أجليت عن ديارها بالبحرين إلى سواد العراق، ثم فني كثير من أفرادها في قتال القبائل والأعاجم هناك، مما أحدث أعظم الأثر في نفس أبي دُوَادِ، عبر عنه في قوله (٥٥):

لا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ	فَقَدْ مَنْ قَدْ رُزْتُهُ الْإِعْدَامُ
مَنْ رَجَالَ مِنْ الْأَقَارِبِ فَادُّوا	مَنْ حُدَاقٍ هُمْ الرُّؤُوسُ الْعِظَامُ
فَهُمْ لِمَلَائِمِينَ أَنَاةُ	وَعَرَامُ إِذَا يُرَادُ الْعُرَامُ
وَسَمَاحُ لَدَى السَّنِينِ إِذَا مَا	قَحَطَ الْقَطْرُ وَاسْتَقَلَّ الرَّهَامُ
وَشِبَابُ كَانَهُمْ أَسْدُ غَيْلٍ	خَالَطَتْ فَرَطَ حَدِّهِمْ أَحْلَامُ
وَكَهُولُ بَنِي لَهُمْ أَوْلَاهُمْ	مَأْثَرَاتٍ يَهَابُهَا الْأَقْوَامُ

سُلِّطَ السُّدْهُرُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ
فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي حَسْرَاتٍ وَذَكَرُهُمْ لِي سَقَامٌ

وهكذا نجد أن رثاء الأفراد لدى الشعراء كان مظهرًا من مظاهر النزعة العصبية؛ إذ عبروا فيه عن مدى الرابطة التي تشد ما بين أفراد القبيلة من أواصر المحبة والتعاطف والتناصر، حتى إذا أصيب واحد منهم، وأودت به إصابته، تداعى له سائر الأفراد بالحزن والأسى من جهة، وبالغضب والتأهب للانتقام من جهة أخرى.

وخلاصة القول أن الشعر أبرز لنا العصبية القبلية لدى الإنسان العربي متجلية في أشكال عدة، من التزام قبلي، ومن ولاء للقوم وسيدهم، ومن دفاع عنهم، وحنين إلى ديارهم، ورثاء لأفرادهم. وهذا ما يجعلنا نعتقد، معتمدين في ذلك على ما قدمناه من أقوال الشعراء أنفسهم، أن النزعة العصبية كانت أهم المقومات التي استندت إليها الحياة القبلية في العصر الجاهلي، والتي كانت تتحكم في علاقة الفرد الاجتماعية بقبيلته، وكلما كانت تلك النزعة طاغية عليه اشتد التحامه بالقبيلة وأفرادها، وقوي ارتباطه بديارها وجماها.

الحواشي والمصادر والتعليقات

- (١) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٦ ، ط دار الشعب ، القاهرة .
- (٢) بحث في علم الجمال : ص ٢٤ ، لجان برتليمي ، ترجمة أنور عبد العزيز ، ط القاهرة ، ١٩٧٠ .
- (٣) الأصمعيات : ص ١٠٧ ، للأصمعي ، تحقيق شاکر وهارون ، ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٧ .
- (٤) تاريخ الطبري : ١ / ٢٢٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ .
- (٥) المفضليات : ص ٦٩٥ - ٦٩٦ ، للمفضل الضبي ، شرح الأنباري ، ط بيروت ١٩٢٠ .
- (٦) ديوان سلامة بن جندل : ص ١٥٣ - ١٥٤ ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، ط حلب ١٩٦٨ .
- وذربن الأسننة : محددتها ، أو أنها أشربت سماً . والأوساق : الأجمال .
والعندم : نبات يُصَبَّغُ به .
- (٧) ديوان الأعشى الكبير : ص ١٣١ ، تحقيق محمد محمد حسين ، ط القاهرة ١٩٦٠ .
- (٨) المؤلف والمختلف : ص ٤٢ ، للآمدي ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط القاهرة ١٩٦١ .
- (٩) شرح القصائد العشر : ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، شرح التبريزي ، ط حلب ١٩٧٣ .
- (١٠) المفضليات : ص ٦٢٦ . والقعاء : الثابتة . ونختطم العدى : نضرب خطمهم ، والخطم الأنف ، ويطدون الأرض : يشدونها ويثبتونها .

- (١١) خزانة الأدب: ٩٠/٣، للبغدادي عبد القادر، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٦٧.
- (١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (١٣) الحيوان: ٤٧١/٣، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط البايي الحلبي، مصر ١٩٦٥.
- (١٤) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي: ص ٤٦ - ٤٨، تحقيق خليل إبراهيم العطية، ط بغداد ١٩٧٠.
- والشزر: قتل الحبل مما يلي اليسار، وهو أشد لفتله. والمريرة: من «المِرَّة» وهي إحكام الفتل ثم أريد بها القوة. والقحم: الشيخ الكبير. والضرع: الغمر الضعيف.
- (١٥) ديوان الأعشى الكبير: ص ٣١.
- (١٦) عيون الأخبار: ٢٢٦/١، لابن قتيبة، ط دار الكتب، مصر ١٩٢٥.
- (١٧) شرح القصائد العشر: ص ١٧٤ - ١٧٨.
- (١٨) الحيوان: ٣٣٠/١، والشرح عن الجاحظ.
- (١٩) مقدمة ابن خلدون: ص ١١٦.
- (٢٠) البيان والتبيين: ٢٣٩/١، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٦٨.
- والصتم: الصحيح القوي.
- (٢١) الحيوان: ٣٠/٥. وخلاها: من «الحَلَى» وهو الرطب من النبات؛ أي جعلها كالسوائم ترداد المرعى بدون قائد.
- (٢٢) تاج العروس: مادة (ملاً) للزبيدي، ط مكتبة الحياة، بيروت.
- (٢٣) السيرة النبوية: ١٢٥/١، لابن هشام عبد الملك، تحقيق السقا

- والأبياري وشلبي، ط مصر ١٩٥٥ .
- (٢٤) ديوان لقيط بن يعمر: ص ٤٧ .
- (٢٥) ديوان الأعشى الكبير: ص ٤٩ .
- (٢٦) أمالي المرتضى: ٥٣١/١، للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط بيروت ١٩٦٧ .
- (٢٧) الحيوان: ٩٦/٢ .
- (٢٨) المعثرون والوصايا: ص ١٢٢، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق عبد المنعم عامر، ط مصر ١٩٦١ .
- (٢٩) الأغاني: ٤٦/٥، لأبي الفرج الأصفهاني، ط دار الكتب المصرية .
- وفرس وقاح: أي ذو حافر صلب، أو هو صلب قوي .
- (٣٠) الأصمعيات: ص ٧١ . والنعام: فرس الحارث بن عباد . ولقحت: حملت . وعن حيال: بعد حيال، وحالت الناقة: لم تحمل، وهذا مثل ضربه لشدة الحرب .
- (٣١) ديوان المتلمس الضبعي: ص ١٩ - ٢١، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٧٠ .
- وبهتة: بطن من ضبيعة، وهم عشيرة المتلمس . وأينها: أراد في أي مكان كنت فإنني أنتمي إلى قومي .
- (٣٢) الحماسة البصرية: ٩٧/١، لصدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، ط حيدرآباد الدكن ١٩٦٤ .
- (٣٣) ديوان عمرو بن قميئة: ص ٣٢ - ٣٧، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥ .
- وملمومة: مجتمعة، وأراد كتيبة مجتمعة، والكوكب: هنا، معظم الشيء . والمقدحرات: المتهيبات للقتال، والضمير يعود إلى الخيل .

والضباط: الجماعات. ونهزجة: أي انتزاع ما فيها. والجمعة: كثيرة الماء، وأراد بئراً جمة.

(٣٤) ديوان عامر بن الطَّفِيل: ص ٩٤، شرح الأنباري، ط بيروت ١٩٦٣. والتميل: السم.

(٣٥) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٨، تحقيق عزة حسن، ط دمشق ١٩٧٢.

والآلة: الحالة. والحريب: المسلوب المال والمتاع. والشل: السوق والطرْد. والإيجاف: السير الشديد. والعُجوب: جَمْع العَجَب، وهو مؤخر كل شيء، وأراد بها الأعجاز. والعضاريط: جمع العُضْرُوط، وهو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه.

(٣٦) المفضليات: ص ٦٣٧.

(٣٧) ذيل الأمالي والنوادر: ص ١٧٨، لأبي علي القالي، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦.

وأخرج: يقال: ظليم أخرج، أي فيه سواد وبياض. وأكهب: يقال: بعير أكهب، أي في لونه غبرة مشربة سواداً.

(٣٨) المفضليات: ص ٥٩٤ - ٥٩٦. والأثلة: الشجرة، وهذا مثل. والحرد: القصد أو الغضب. والخرقاء: الجهل. والميخنة: الأنف.

(٣٩) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ٥٥٢/١، للبكري عبد الله، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط القاهرة ١٩٣٦.

(٤٠) المحبر: ص ٢٠٥، لابن حبيب، تحقيق إيلزة ليختن شتير، ط حيدر آباد الدكن ١٩٤٢.

(٤١) المفضليات: ص ٤٢٦. ويؤء: من قولهم بء فلان بفلان إذا كان كفؤاً. أن يُقتل به، وقد ترك إعلال الفعل ضرورة. وذو تحية: أراد به الملك. وأسف: دنا.

(٤٢) المفضليات: ص ٤١٤-٤١٧. والسيف: ضفة البحر. وقف ورملة: موضعان.

وحبال: أراد بها حبال الرمال، وهي معازمها. وخبث والحرة: موضعان. والرجلاء: الغليظة. والشرك: موضع تشعب الطرق. والبرازيق: جمع البرزق، وهو المركب، وأراد به هنا الكتيبة.

(٤٣) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٢٢/٤، لجواد علي، ط بغداد ١٩٧٦.

(٤٤) معجم ما استعجم: ٧٦/١، للبكري عبد الله، تحقيق مصطفى السقا، ط القاهرة ١٩٤٥.

والمغمس والحريب وراكس أسماء مواضع. والوذيم: ما تعلق به التمام من خيط أو ما شابهه. والخوارس: النسوة اللواتي يطعمن الناس في ولادة المرأة، واسم الطعام الخرس. والعرانس: طيور تشبه الحمام. بيشة واللوى: موضعان. والأخشاف: جمع الخشف، وهو ولد الظبي. والجوارس: الطيور المصوطة. والمعاطس: الأنوف.

(٤٥) معجم البلدان: مادة (شأم) لياقوت الحموي، ط بيروت ١٩٥٥. وعاتقات: جمع عاتقة، وهي الفرس الكريمة. وغاورن: نزلن الغور. وأزل: من «أزل الفرس» إذ قصر حبله ثم سبب؛ فكأنه لما غادر قومه صار في منزلة الفرس المسيب. وتأي: من «تأي» والياء للمتكلم.

(٤٦) ديوان المتلمس الضبعي: ص ٨٢-٩٣. وأمرات: جمع مَرْت، وهي الأرض التي لا نبت فيها.

وأماليس: جمع إمليس، وهي الأرض المستوية أو التي لا نبات فيها. والبسل: الحرام. والدهاريس: الدواهي، وأمّي شامية: أي اقصدي ناحية شامية. وشوس: من «الشوس» وهو النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً. والبوبة: موضع بنجد.

(٤٧) الأصمعيات: ص ١٥٠ .

(٤٨) فرحة الأديب: ص ١٣٩ ، للفُندجاني، تحقيق د. محمد علي سلطاني، ط دمشق ١٩٨١ .

وانظر معجم البلدان: مادة (غمران). وأوعب: استأصل . والجادع:
قاطع الأنف خاصة . والغمران ، وذو نجب: مواضع في بلاد بني أسد .
والغلان: الوديان الغامضة في الأرض . والدوافع: الأراضي السهلة التي
تدفع فيها الأودية . والخو والتين والربائع: مواضع في بلاد بني أسد .
ومكاكي: جمع مكاء، وهو طائر أبيض كثير الصغير.

(٤٩) شرح ديوان الحماسة: ٩٩١/٢ - ٩٩٤ ، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين
وعبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٥١ .

وعواقب الأطهار: أي مراجعة البعولة إلى مضاجعة النساء بعقب
أطهارهن . والأكوار: جمع الكور وهو الرحل بأداته . والمجنّيات: هي
الخيل التي كانوا يجنبونها فلا يركبونها إلا في الإغارة . والعذوف: أدنى
الأكل . والمساعر: هو الذي يُسعر الحرب ويوقدها .

(٥٠) الأغاني: ٣٤/١٠ .

(٥١) قصائد جاهلية نادرة: ص ١٥٨ ، مختارات من (منتهى الطلب) لابن
ميمون، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط بيروت ١٩٨٢

(٥٢) السيرة النبوية: ٢٩/٢ . والقليب: البئر . والشرب: جماعة القوم الذين
يشربون . والشيزى: الجفان تصنع من خشب . والسنام: لحم ظهر
البعير . والحومات: جمع الحومة، وهي القطعة من الإبل . والمسام:
المرسل في المرعى من دون راع . والثنية: الفرجة بين جبلين . ونعام:
موضع والسّقب: ولد الناقة .

(٥٣) المغازي: ١٢٢/١ ، للواقدي، تحقيق بارسدن جونس، ط جامعة
أكسفورد ١٩٦٦ .

(٥٤) ديوان الخرئق بنت بدر: ص ٢٩-٣٢، تحقيق حسين نصار، ط القاهرة ١٩٦٩. والتأيه: الصوت.

(٥٥) الأصمعيات: ص ١٨٧. وفادوا: ماتوا. وحُذاق: حي من إباد. واستقل: رحل: والرَّهام: جمع الرَّهمة: وهي المطر الضعيف. والهام: جمع الهامة، وهي طائر صغير، تزعم العرب أنه يخرج من الميت.